العدل والسّلام

"مجتهدين في حفظ وحدة الروح برباط السّلام"

ما هي الكنيسة؟ أهي تجمّع ديمقراطيّ بمعنى أنّ مصيرها وإيمانها وكيانها هو رهن لرأي كلّ مجموعة محليّة، على اختلاف ثقافاتهم ومعرفتهم؟ وإذا قلنا "لا" هل هذا يعني أنّه ليس فيها مجال لرأي شخصيّ؟

أسَّس بولس الرسول، بدموع وأسفار وأتعاب وسهر، كنائسَ عديدة، ولكن كانت تعود إليه أخبار عن شقاقات وخلافات بين أعضاء الكنيسة، كان هذا يؤلمه جدّاً، وإذا كان هذا أمرٌ غير محبّذ لكنّه غير غريب.

تنزل كلمة الله على قلوب الناس من مصدرها صافية واضحة وواحدة. لكن الناس ليسوا أنقياء. يخطئ البعض حين يظنّ أنّه يملك الكلمة بدل أن يخضع لها، ومن هنا تبدأ التفاسير المتباينة وتنشأ التيّارات المختلفة. حيث تختلط الكلمة في عيشها مع الخلفيّات الثقافيّة أو الإثنيّة أو الحضاريّة لمتقبّليها! دخلُ الناس المسيحيّةَ، لكن البعض حافظوا على أشياء قديمة أو على إنسانهم القديم فشوّهوا جدّة المسيحيّة الإيمانيّة والأخلاقيّة.

آخرون في الكنيسة يسبّبون انشقاقات وتيّارات ليس لخلاف روحيّ بل لشقاقٍ مزاجيّ أو شلليّ. وهؤلاء يشيّعون أنّ الوحدة قائمة رغم أنّ الواقع هو واقع خلاف! لأنّهم يظنّون أنّ الوحدة قائمة على "الاعتراف بالإيمان الواحد" ولو كنّا أجساماً مختلفة. لا شكّ أنّ لدينا في الكنيسة منظّمات مختلفة ولكلّ منها خدمتها الخاصّة وتتميّز بدورها وشهادتها عمّا حولها في الكنيسة، وهذا مطلوب. والجميع، بكلّ المنظّمات، يتلون دستور الإيمان ذاته، ويتسابقون على الافتخار بالأرثوذكسيّة أو الطائفة... الخ ولكن ترانا أحياناً في شقاق ليس عقائديّاً ولكنّه شقاق قلبيّ وشرخٌ في المحبّة. فهل هذا الواقع هو كنيسة؟ أو بالأحرى هل هذا واقع صحيح للكنيسة؟

يكرّر بولس الرسول هنا في سطور قليلة كلمات حول ضرورة الوحدة بشكل مدهش: "حفظ الوحدة، رباط السّلام، أنّكم جسدٌ واحدٌ، روحٌ واحد، دعوة واحدة، ربّ واحد، إيمان واحد، معموديّة واحدة، إله أب للجميع واحد، إلخ..."!

هذا يعني لكي نكون واحداً لا يكفي أن ننتمي إلى عقيدة واحدة أو مكان واحد، أو ... بل أن نحقّق باختصار صورة بولس الأساسيّة عن الوحدة؛ وهي "الجسد". وما يميّز وجود كنيسة-جسد واحد عن كنيسة ممزّقة، بكتل وأجسام متناحرة- لا سمح الله- أو غير متّحدة، هو الرأس الواحد. فالإيمان المشترك لا يعني الوحدة!

الإدارة في الكنيسة ليست شأناً غير "عقائديّ"! لا بل هي الشأن الأوّل عقائديّاً! يظنّ البعض أنّ الكنيسة هي مجموعة تؤمن بمبادئ مشتركة، نعم هي كذلك. لكن ذلك وحده لا يجعلها كنيسةً! ما يجعل المؤمنين كنيسة هو وحدتهم ووحدة عيشهم ووحدة شهادتهم، إنّهم "جسد المسيح" الواحد. إنّهم أعضاء (خدمات) متعدّدة في جسم له رأس واحد. لا يدير الأعضاءَ مراكزُ مختلفةٌ في الجسم بل رأسُها الواحد.

لذلك صرخ إغناطيوس المتوشّح بالله، اللاهوتيّ الأوّل بعد بولس الرسول، "حيث الأسقف هناك الكنيسة". لا يمكن لجسم ما أن يكون عضواً في الكنيسة إلاّ إذا أخذ "إدارته" من الرأس الوحيد، والرأس هو المسيح، وعلى أرض الواقع هو الأسقف، بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من إيمان ومعرفة وأبوّة وجمع للشمل.

"الإدارة" ليست منفصلة عن الإيمان. "الإدارة" هي طريقة الوجود أي طريقة عيش الإيمان! لذلك وإن كان البعض يظنّ أنّ الوحدة بين كلّ المسيحيّين- مثلاً- ستتحقّق عندما نعترف جميعنا بالثالوث الأقدس والابن والعذراء مريم و الخ...! إلاّ أنّ هذه ليست وحدة! هذه شركة بمفاهيم. الوحدة تعني جسماً واحداً أي أيضاً رأساً واحداً أي إدارة مشتركة وواحدة.

ما دام لنا روحٌ واحدٌ ودعوة واحدة ومعموديّة واحدة وإله آب للجميع واحد... لماذا لا نكون واحداً؟ لأنّه، وللأسف، نتصرّف وكأنّنا رؤوس متعدّدة! لنلاحظْ سبب النزاعات والشقاقات بالتحديد، أغلب الأحيان لا يكون سببها تعدّد في إله كلّ طرف ولا بإيمانه حتّى! ولكن يكون السبب عدم الوحدة في "الإدارة"- وهذه كلمة مقدّسة وليست بيروقراطيّة! أي لنا تبعيّات ومرجعيّات مستقلّة الواحدة عن الأخرى.

الوحدة الكنسية ليست رغبة معيّنة لدينا هامّة أو غير هامّة، إنّها أكثر بكثير، لأنّه دون الوحدة- نتجرّأ ونقول- لا تتحقّق الكنيسة!

بين التلاميذ الاثنَي عشر، وهم الجيل التأسيسيّ الأوّل الذي رافق الرب يسوع في حياته، صار نزاع على "مَن هو الأوّل". ومنهم مَن باع السيد ومنهم مَن وقف معه حتّى الصليب! هذا هو التنوّع البشريّ، إذا كان هناك تنوّع بشريّ لا يمكننا أن نقبل بتنوّع الكنائس وتعدّدها. الكنيسة هي "الكنيسة

الواحدة الجامعة الرسوليّة". وكلّ رأس فيها لا يحقّق الوحدة مع التسلسل الرسوليّ، مهما كان إيمانه، يشكّل انشقاقاً و انفصالاً عن جسد المسيح الواحد.

أن "نعمل جميعاً في الكنيسة"، هذه صورة "مهلهلة". يجب أن نعمل معاً. والمقصود أنّ الوحدة بالجسم الواحد مع الرأس الواحد هي بالنهاية أهمّ من حجم الأعمال أو المواهب، هذه الأخيرة مخطئة ومضرّة عندما لا تخدم تلك.

هل يعني الاتّحاد "الإداريّ" الاكليزيولوجيّ مع الرأس الواحد في الجسم الواحد شيئاً من الديكتاتوريّة؟ أو إلغاءً للرأي الخاصّ؟ يحدّد هنا بولس الرسول طبيعة العلاقة بين أعضاء الجسم المختلفة (منظّمات- مؤمنين- خدّام...) مع الرأس (الأسقف)، وذلك بعبارة "مجتهدين في حفظ وحدة الروح برباط السّلام"!

رباط السّلام هو "المحبة"، وفي المحبّة يتحقّق أمران. الأوّل هو الديمقراطيّة الحرّة، والثاني هو الوحدة حول الحقيقة. وحدة الرباط الإداريّ لا يعني أبداً وجود الرأي الواحد! فالناس متعدّدون، لكن يعني أن نجعل الوحدة فوق الآراء المختلفة. نحن كنيسة نسير معاً مسيرة واحدة، ونفكر بأشكال متعدّدة ولكن معاً. لا يفصل الإنسان المؤمن عن أخيه خلاف فكريّ، ما دام الاثنان على وحدة مع رأس واحد. على العكس لا يتّحد اثنان متّفقان بالرأي ولهما مرجعيّتان مختلفتان (رأسان). المحبّة المسيحيّة، عند الأسقف، وعند الخدام والمؤمنين، تتحقّق بما نسمّيه رعاية، ومن الطرفَين.

إبداء الرأي في الكنيسة لا يعني فرض الرأي، ولا يعني التصنيف بحسب الآراء- التحزّب-... بل يعني بسط الأفكار والآراء أمام "أمر" الكلمة الإلهيّة حيث الأسقف والجميع يخضعون، أي يفحصون كلّ شيء على أساسها.

مَن يحب رأيه أكثر من أخيه سوف يمزِّق ومَن يحب بالعكس يوحّد! ليس من السهل أن يُحافظ على وحدة الروح، إلاّ إذا جعل كلٌّ منّا حقوقه أرخص من حقّ الكنيسة بالسّلام. الناس كلّهم يخطئون، عن معرفة وعن غير معرفة. فإذا بدأنا المطالبة بالحقوق سوف نبيع السّلام. السّلام في عالم توجد فيه خطيئة لا يتحقّق بالحقوق، إنّما بالمسامحة. "العدل والسّلام تلاقيا" هذه عبارة اسختولوجيّة تتصوّر أنّ ذلك سيتحقّق في منتهى الأيام حيث ستُرفع الخطيئة، عندما يطيع الجميع دون خلل الكلمة الإلهيّة فيسود العدل ويتحقّق السّلام.

أمّا رباط السّلام في عالمنا وكنيستنا فإنّه يقوم على "المسامحة" لذلك يعلّمنا بولس الرسول: "محتملين بعضكم بعضاً بالمحبّة". نعم إذا اختلفت كراماتنا-حقوقنا يجب ألاّ يختلف انتماؤنا الواحد إلى

جسد المسيح الواحد. لنطرح "مزاجاتنا" جانباً ونعالجها بالاعتراف والتوبة، ونبقى متّحدين. لنحافظْ على السّلام بطاعة الكلمة الإلهيّة، وبالسماح حين يظهر عصيان. تفقد الكنيسة فرحها وجمالها عندما تفقد سلامها. ربّنا ربّ السّلام وكنيسته كيان للسّلام والوحدة. لا يمكن أن يكون ثمنُ كلّ خطيئة رأساً جديداً في الكنيسة، وإنّما المسامحة والطاعة! لا يجب أن يخلق كلّ خلاف انتماءً مختلفاً، بل نحتمل بعضنا بعضاً للحفاظ على رباط السّلام.

"يا إخوة، أطلب إليكم أنا (بولس الرسول) الأسير في الربّ أن تسلكوا كما يحقّ للدعوة التي دُعيتم إليها" (لتكوين كنيسة). مؤثّرة هي كلمات بولس الرسول وتضرّعاته، وتستحقّ منّا كلّ إصغاء، آمين.